

◆ بذرة الملاحم العربية فى الأندلس

كنا إلى وقت قريب نقرأ ما رواه ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وابن بسام فى الذخيرة ، والمقرئ فى النفع من الأراجيز التاريخية الطويلة ، فنمر بها مرّ الكرام ، ولا نجد ما تستأهل وقفات جادة للبحث والتحليل ، حتى جد من الآراء العلمية حول هذه الأراجيز ما يجعلنا نقف عندها فنطيل .

لقد استعر الخلاف بين علماء الأسبان وعلماء الفرنسيين حول أصل الملاحم الشعرية التى ظهرت فى فرنسا خلال القرن الثانى عشر ، وفى أسبانيا بعد ذلك بقليل جداً من الزمن ، وحاول كل فريق أن يجعل أُمَّتَهُ ذات السبق الظافر فى الابتكار ، وكان أكثر الباحثين يميلون إذ ذاك إلى جانب فرنسا ، إذ إن سبقها الزمنى بمنزلة لامعة فى الوضوح ، فلا محل للقول بأن أسبانيا قد تقدمتها فى هذا الميدان ، وانتهت المسألة عند ذلك ، حتى ظهر الباحث الأسباني الهادف «خليان ريبيرا» ، فأثبت فى أبحاثه الطويلة أن أدب الملاحم كان يملأ أسبانيا المسلمة ، وأن فريقاً من أدباء الأندلس فى عهد الإسلام قد وضعوا أساس هذا النوع من الأدب المتنازع عليه ، فإليهم - وبالتالى إلى أسبانيا - يرجع فضل السبق فى الابتكار .

وقد قام الدكتور حسين مؤنس بنقل آراء هذه الباحثة إلى العربية^(١) ، مع التعقيب عليها تعقيماً وافياً شافياً بما يرضى نهم الذين لا يعرفون الأسبانية ، ويتشوقون فى رغبة مستطلعة أن يلمّوا بأقوال هذا المستشرق الجليل ، وكان مما قاله الدكتور مؤنس :

(١) تراجع مجلة الثقافة السنة الثانية سنة ١٩٤٦ ، ففيها سلسلة بحوث الدكتور حسين مؤنس المشار إليها.

«لاحظ ريبيرا أن المسلمين فى الأندلس عرفوا الشعر القصصى وشعر الملاحم فى زمن مبكر جداً ، فقد ذكرت المراجع مثلاً أن تمام بن علقمة - من كبار رجال البلاط الأموى فى عهد عبد الرحمن الداخل - وابنه هشام كتب ملحمة طويلة وصف فيها فتح المسلمين للأندلس وقدم عبد الرحمن الداخل ، وتأسيس الإمارة الأموية فى قرطبة ، كذلك أنشأ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد قصيدة ماثلة لهذه فى أعمال بعض الأمراء الآخرين ، ونحن وإن كنا لم نعثر على شىء من هذه الملاحم - لعله يريد جميع هذه الملاحم ، لأن بعضها موجود فعلاً - إلا أن تواتر الإشارة إليها فى المراجع يدل على أن المسلمين عرفوا هذا النوع من الشعر ومارسوه » .

وقد فهم الأستاذ «ريبيرا» مدلول الملاحم على معنى واسع ، فلم يقصرها على النمط العربى الموزون ، ولكنه التمسها فى الأساطير النثرية التى تتعلق بالفتح العربى للأندلس ، وفى الأزجال الشعبية التى كانت تردد باللغة الدارجة بين مسلمى الأندلس إذ ذاك ، وجعل من الأراجيز المنظومة والأساطير التاريخية والأزجال الشعبية وحدة مرتبطة بقيم البناء الملحمى حين تعرض جوانب من البطولة والفروسية ، وتبرز عناصر المفاجأة والخوارق فى المعارك الحربية ، وتحدث عن الاحتيال والخديعة حين يمهدان للنصر السابق السريع ، وقد رجع الأستاذ - فيما رجع - إلى تاريخ ابن القوطية الشهير ، فنقل عنه كثيراً مما يتضمنه من غريب الخوارق عن الفتح الإسلامى إذ حفل كلام هذا المؤرخ - المسلم العقيدة ، القوطى الأصل - بما لا يكاد يوجد عند غيره من المسلمين ، فإذا كانت أكثر المراجع الإسلامية قد تحدثت عن معاملة الفاتحين لأسرة غيطشة ومروءة العرب وسماحتهم فى استرضاء القلوب ، مما يتفق وروح البطل المترفع كما تصوره الملاحم ، فإن «ابن القوطية» يتفرد بغرائب تنحو هذا النحو ، كموقف عبد الرحمن بن معاوية من أرطباس ، وقصة أرزاق بن ختيل صاحب وادى الحجارة مع موسى بن موسى ، وأمثال هذه الأساطير الشعبية ، فإنها فى رأى «ريبيرا» شعر قصصى ملحمى - أيًا كانت لغته - صدرت عن شعب أندلسى شديد التعلق بأبطاله ، ولعل من المستحسن أن يرجع القارئ إلى بحوث الدكتور حسين مؤنس فى هذا الموضوع ، وقد تابعها سلسلة بمجلة الثقافة سنة ١٩٤٦ فى ثمانية أعداد حافلة بالجديد المفيد .

والذى يهمننا من ذلك كله هو بذرة الملاحم الشعرية الواضحة فى التراث الأندلسى ، وكيف كان أدبنا العربى صاحب هذه البذرة التى انتقلت منه إلى غيره ، فأقامت بناءً عالمياً جديداً فى دنيا الأدب الدولى كما يجزم «ريبيرا» وتلاميذه الكثيرون !

يستكثر بعض الباحثين أن يكون فى الأدب العربى ملحمة ما ، وأذهانهم تسبق بلا ريب - حين تظن فى آذانهم كلمة ملحمة - إلى إلياذة هوميروس ، وكأنهم يقولون فى قرارة نفوسهم : إما أن تكون الملحمة كملاحم اليونان وإلا فلا - وهم يشترطون فيها بناءً على هذا التصور - أن تشتمل على حوادث خارجة عن المؤلف ، بحيث يكون أبطالها مَرَدَّةً ، أو أنصافَ آلهة ، وقد يكونون آلهة أحياناً يتقاسمون المعركة ، وينصرون فريقاً على فريق ، وقد يكونون شخصيات خرافية لا وجود لها على الإطلاق ، فإذا تواضعت الملحمة فهى مزيج بين أبطال حقيقيين وآخرين من دنيا الخيال ، وهذا التصور بعيد عن الفكر الإسلامى الذى لا يعترف بغير إله واحد ليس كمثله شىء .

وهذا الشرط الذى أوحته أساطير اليونان ، يقف حائلاً دون الاعتراف بملاحم كثيرة ، فالكوميديا المقدسة ملحمة منظومة للشاعر الإيطالى الطائر الصيت دانتى تصف الجحيم وسكانه ، وما به من أهوال تجعل الولدان شيباً ، وتخرج على الأعراف فتحدد مكان التطهير والاستنابة بين الجحيم والفردوس ... وأبطالها أناس واقعيون يحفظ التاريخ أخبارهم ، ويضعهم دانتى موضعهم اللائق فى اعتقاده ، ومنهم قائده الشاعر الرومانى «فرجيل» وحبيته الحسناء «بياتريس» الفلورنسية التى ألهمته أجمل أناشيد الصبابة ، بل أوحى له بهذا الأثر الفنى الجميل .. والكوميديا بهذا الوضع تتعد كثيراً عن ملحمة هومير.

وكذلك يقال فى ملاحم «أولارندو الغاضب» للشاعر الإيطالى «أريوستو» ، والفردوس المفقود للشاعر الإنجليزى «جون ملتن» ، فالأولى تصف المعارك التى دارت بين المسيحيين والوثنيين ، إذ تتحدث عن انتشار المسيحية وازدهارها ، وطابعها دينى كطابع دانتى فى الكوميديا الإلهية ، والثانية ملحمة تصف نشأة العالم ، وتتحدث عن خروج آدم وحواء من الجنة ، مستقاةً مصادرها من الكتاب المقدس ، مع إضافات هامة تمخض عنها إحساس الشاعر الكبير ! فإذا جاز لنا أن نعد روائع دانتى ، وأريستو ، وملتن

من الملاحم - وهى كذلك فعلاً باعتراف الجماهرة من الناقدين - فقد ابتعدنا كثيراً عن شرط الخوارق المعجزة للآلهة وأنصاف الآلهة ، وأمكنا أن نطلق الملحمة على كل حادثة عظيمة تدور حول بطل عظيم أو عدة أبطال يجمعهم خيال الشاعر فى نطاق محدود ، ويتصرف بهم كما يشاء ، ولو جاز لنا أن نقصر الملحمة على المتعارف منها لدى الإغريق فلماذا لا نفعل ذلك بالأجناس الأدبية الأخرى غير الملحمة ، فالخطبة مثلاً عند الإغريق ، ليست كالخطبة عند العرب فى وجه ما من الوجوه ، إذ إن الخطب المروية عن اليونان قضائية سياسية تنتهى بأخذ الأصوات من السامعين ، وأصحاب هذه الأصوات من القضاة يصدرن أحكامها غير مسببة أو مشفوعة بحديثات ما ، وإنما يتأثرون تأثراً وقتياً بما يسمعون ، فيصدرن أحكامهم ، وتكون كثرة الأصوات وقلة هى عامل التبرئة والإدانة ، بدون نظر إلى حجاج أو برهان ! على ذلك مضت الخطب اليونانية التى انتقلت إلينا من أشباه بركليس ، وديموستينس .. وطبيعى أنها بذلك تختلف عن خطب الدنيا فى المشرق والمغرب ، ونحن نعرف مدى اشتهاار الخطابة لدى العرب فى العهد الجاهلى وما يليه ، فلا مناسبة إطلاقاً بين قس بن ساعدة ، وسحبان وائل ، وأكثم بن صيفى ، وما تُعورف من خطب اليونانيين ، وقد اعترف الكاتبون بخطب العرب بدون أن يقيسوا بخطب اليونان ، فلماذا لا نعترف بملاحم العرب وندعى أنها تفترق عما تُعورف من ملاحم هوميروس ؟.. وكيف يضيق الأمر فى عيوننا لدى الحديث عن الملاحم العربية بالذات ؟.

إن من أخطر الأشياء أن نستند إلى أحكام عائمة لا تعتمد على برهان صحيح ، فمنذ قال الفيلسوف الفرنسى «أرنست رينان» : «إنَّ العقل السامى عقل جزئى لا يصدر عنه أثر كلى متشعب مستوعب» ، منذ قال ذلك القول الجرىء ونحن نرفض الاعتراف بملاحم العرب ، لأن الملحمة موضوع كلى لا يستطيعه عقل سامى !! وقد أثبتت الكشف الحديثة - بطريقة لا تقبل الشك - فساد هذا الحكم المغرض ، وكان اكتشاف الملحمة السامية قبل الملاحم الإغريقية أول معول فى هدم هذه الترهات .. ولن نبعد كثيراً عن موضوعنا حين نستطرد إلى ذلك فنقول :

من المسلّم به تاريخياً أن سكان العراق وبابل وآشور وفينيقية نزحوا أصلاً من جزيرة العرب فى موجات متدرجة ، حيث استوطنوا هذه الأقاليم ، فهم عرب ساميون ، وقد اكتشفت بعثات الآثار التى بدأت عملها سنة ١٨٤٣ بوساطة قنصل فرنسا بالموصل - وما يليها من بعثات أخرى فرنسية وإنجليزية - اكتشفت هذه البعثات مكتبة ملك آشور «بانيال» وبها اثنا عشر لوحاً يتضمن ملحمة «جَلْجَمِيش» الذائعة الصيت ، وهى ملحمة تتحدث عن بطل امتزجت فيه الألوهية بالإنسانية حتى غدا مرهوباً^(١) مخيفاً ، يحارب العمالقة ، ويتوجه إلى جبال لبنان لينازل عملاقها الهائل «هومبايا...» وتمضى الملحمة فى جو أسطورى كجو «هومير» ، فتتحدث عن أعاصير الحب والحقد والوقية ، وتسرد الخوارق من الانتصارات على المردة ، والثور السماوى الذى بعثته الآلهة ليدمر المحصولات ، ويبيد الشجر ، ويبعث الحرائق ويقتل «جلجميش» ! والإفاضة فى أدوار هذه الملحمة مما يتعذر فى هذا النطاق ، ولكننا نشير إلى أنها ملحمة عربية سامية ، تبطل نظرية التفكير الجزئى التى هتف بها «أرنست رينان» وتلقفها من يرجفون بالعرب ولا يطبقون أن يروا لهم خيراً يُذكر بحال .. وليت شعرى ، ما يقول هؤلاء حين يسمعون أحكام النقاد تجزم بأن ملحمة «جلجميش» قد انتقلت مع حضارة بابل القديمة إلى آسيا الصغرى والجزر القريبة منها ، فعرفها اليونان ، ولعلها كانت مصدر إلهام لهوميروس ، ولا سيما أن التشابه واضح بين الملحمتين يتطلب من يخصّه بالتحليل ؟!

إن الملاحم تنشأ دائماً فى عهود الطفولة العقلية لدى الأمم ، إذ تحاول الشعوب الفطرية فى سذاجتها البدائية أن تحلّ ما تعجز عن تعليله من ظواهر الكون فتلجأ إلى الخرافة ، ثم تُسلسل هذه الخرافات حتى تكون قصصاً غريبة تكون فيما بعد ملاحم بطولية ..! ولقد كان للعرب فى الجاهلية ملاحمهم دون نزاع ، لأن أمة تسكن الصحراء وتتحدث عن الغول والعنقاء ، ويصف شعراؤها منازل الجن فى أعماق الفلوات - كَتَابُطَ شراً وغيره - لابد أن يكون لها ملاحم بطولية ، ولا سيما أن القارات القبلية متصلة لا تنقطع ، وأيام العرب الحربية لا تحصر ..! وقد يسأل سائل : لماذا لم نعر على هذه

(١) هكذا كانوا يعتقدون فى أوهامهم .

الملاحم كما عثرنا على إلياذة هوميرو مثلاً ؟ وتعليل ذلك - فيما أراه شخصياً ، وأكاد أعتقد أنه على جانب من الصواب - أن انفكك الشعر اليوناني من القافية قد ساعد على ضم الأشعار بعضها إلى بعض حتى كَوُنت جوانب كثيرة من الإلياذة ، وجاء هوميرو فوجد هذا التراث الكبير أمامه فنسّقه وضم بعضه إلى بعض ، أما اعتماد الشعر الجاهلي على القافية والوزن فقد حال دون ضم هذه الأشعار إلى ملحمة واحدة ، فإذا كانت موقعة كموقعة داحس ، والغبراء ، أو ذى قار ، أو الذنائب ، فإن أكثر من شاعر قد قال فى كل موقعة منها إذ قال ما شاء من بحره الخاص وقافيته الخاصة ، ومضى الزمان فُنسب كل قول إلى قائلة ، دون أن تجمع أشعار المعركة فى ملحمة خاصة ، إذ وقفت القافية والبحر معاً دون هذا الاندماج والالتحام ، وليس كذلك فى الشعر اليوناني ، لأن الخلاص من هذين القيدين قد سهل للمتفرق أن يجتمع ويلتئم ، وبخاصة إذا قام به عبقري جهير كهوميرو .

لنا إذن أن نلتمس بذور الملحمة العربية فيما تفرق من شعر الوقائع فى الجاهلية والإسلام ، فإذا ما امتدّ بنا الزمن إلى العصر الأندلسي ، فإننا نجد تعديلاً جديداً يطرأ على ما يُعرف بشعر الوقائع ، وهو ما نلمسه فى الأراجيز التاريخية التى أشار إليها الباحث المنصف «ريبير» ، والتى من أجلها اضطررنا لمجهدين أن نطوف طوفاناً سريعاً حول معنى الملحمة ، ومصدرها الأول فى الشرق والغرب مما لا بد من الإلمام به فى هذا السبيل .

لقد ذكر العلامة «ريبير» أن شاعراً كبيراً (هو تمام بن علقمة) قد أنشد أرجوزة تاريخية أندلسية ، والمصادر الأندلسية لا تعطينا شيئاً ذا بال عن هذا الشاعر ، ولا عن أرجوزته الملحمية ، وإنما لتذكر أنه توفى سنة ٢٨٢هـ ، وهذا الموعد يوقعنا فى تساؤل حائر ، لأن ابن المعتز الشاعر العباسي قد توفى سنة ٢٩٦هـ ، أى بعد ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً من وفاة تمام ، وكنا نعرف أن ابن المعتز هو أول من نظم الأراجيز التاريخية فى الأدب العربى ، ولكن لدينا الآن ما يوجب أن تكون أرجوزة تمام سابقة له ، لأن ابن المعتز نظم أرجوزته فى سيرة الخليفة العباسي المعتضد ، وذكر فيها وفاته ، مما يُشعر أنها قيلت بعد موت الخليفة سنة ٢٨٩ ، وإذن فقد تأخرت أرجوزة ابن المعتز عن أرجوزة تمام لا محالة ، ولكن من يضمن لنا أن نخزم بانتقالها إلى الشرق ومحاكاة ابن المعتز لها ؟ يخيل إلى أننا لا نستطيع الجزم بذلك عن يقين ، فقد يكون ابن المعتز ممن قرءوا أرجوزة تمام ،

وقد تكون أرجوزته فى المعتضد من قبيل توارد الخواطر ، يدل على ذلك أن ابن المعتز كان كثير النظم فى الأراجيز ذات القافية المزدوجة فى غير باب التاريخ ، وهو ما لم يعهد لأندلسى قبله ، وربما امتد به إعجابه بالمعتضد وحسرتة عليه بعد وفاته إلى أن يخصه بأرجوزة سهلة التعبير عن جميع مواقفه ، حيث لا يتكلف لها تكلف قصائد الرثاء ، من احتفال بالقافية ، واهتمام بما برع فيه من غرائب التشبيهات ، ودقيق الأوصاف ، ولو أن أرجوزة تمام نُقلت إلى المشرق واشتهرت اشتهاً جعل ابن المعتز يحاكيها لتناقلتها كتب المشاركة كلون جديد ، ولكنها سكنت عنها نهائياً ، ولولا إشارات مقتضبة فى كتب الأندلس ما سمع بها العلامة الأسباني «رييرا» .. فإذا كان ابن المعتز قد مرّن على نظم الأراجيز ذات القافية المزدوجة فى غير باب التاريخ ، كقوله مثلاً يصف الرياض فى منظومته ذم الصَّبوح :

ألا ترى البستان كيف نورا	ونشر المنشور زهراً أصفرا
وضحك الورد إلى الشقائق	واعتنق الورد اعتناقاً وامق
فى روضة كحلل العروس	وخرم كهامة الطاووس
وياسمين فى ذرى الأغصان	منظم كقطع العقيان
والسرو مثل قُضب الزبرجد	قد استمد العيش من ثرب نَد
على رياض وثرى ثرى	وجدول كالمبرد المجلّى
والسوسن الأبيض منشور الحلل	كقطن قد مسّه بعض البَلل
وحلق البهار بين الآس	جمجمة كهامة الشّماس
وجلّ نار كاحمرار الخدّ	أو مثل أعراف ديوك الهند

فإن ذلك يُسهّل لنا القول إنه نظم أرجوزته فى المعتضد بدءاً دون أن يتأثر بشاعر لا يعلم عنه مشرقى - فيما نظن - شيئاً ، أما أرجوزته المعتضدية فسليلة لم تثقل بمهرقات الصور والتشاييه ، وسنقل هنا افتتاحها ليكون تمهيداً لحديثنا الآتى عن أرجوزة ابن عبد ربه ، لأن لدينا بعض ما يقال بصدد الشاعرين الكبيرين .. قال ابن المعتز فى مطلع أرجوزته :

باسم الإله الملك الرحمن
الحمد لله على آلائه
أبدع خلقاً لم يكن فكائناً
وجعل الخاتم للنبوّة
الصادق المهذب المطهراً
مضى وأبقى لبنى العباس
برغم كل حاسدٍ يغييه
هذا كتابُ سيرِ الإمام
أعنى أبا العباس خير الخلق
قام بأمر الملك لما ضاعا

ذى العزّ والقدرة والسلطان
أحمده والحمد من نعمائه
وأظهر الحجّة والبياناً
أحمد ذا الشفاعة المرجوّة
صلى عليه ربنا فأكثرنا
ميراث مُلكٍ ثابت الأساس
يهدمه كأنه بينيه
مهذباً من جوهر الكلام
للمُلك قول عالمٍ بالحق
وكان نهياً للورى مُشاعاً

فأنت ترى هذا النظم شبيهاً بقول العلماء لا يبدع الشعراء ، وهو إلى أن يلحق
بمتون العلوم أقرب من أن ينتسب إلى جوهر الأدب اللباب ، ونحن لا نظلم ابن المعتز بهذا
الحكم فللشاعر تحليقاته السامقة فى أجواء أخرى غير هذه الأرجوزة ، ولكننا نظلم ابن
عبد ربه الشاعر الأندلسى ظلماً فادحاً حين نجرى حكمنا على أرجوزة ابن المعتز إلى
أرجوزته الملحمية البديعة ، وهذا ما وقع فيه كثير من الكتّاب .

فالدكتور أحمد هيكل - على حُبه لابن عبد ربه - ومقاومة آراء من يغمضون عن
قيّمته الشعرية^(١) ، قد حكم على أرجوزته التاريخية حكماً قاسياً حين قال فى كتابه
(الأدب الأندلسى «ص ٢٥٧») :

«وكما عرف ابن عبد ربه بالمخصّصات عرف كذلك بأرجوزته فى الخليفة
عبد الرحمن الناصر ، تلك الأرجوزة التى مَجَّدَ فيها الخليفة ، ووصف حروبه وغزواته
... والحق أن تلك الأرجوزة أشبه ما تكون بالمنظومات التاريخية ، فليس فيها من عناصر
الشعر شيء ذو قيمة ، ومن الإنصاف للشاعر والشعر أن تعد فى إنتاجه التاريخى لا فى
تراثه الفنى !» .

(١) غمض عن الشيء : تجاوزَ وأغضى .

هذا حكم الدكتور هيكل ، ولكننا نقرأ أرجوزة ابن عبد ربه فنجدها رائدة فى حقلها الملحمى ، لأنها لم تسلك مسلك ابن المعتز حين صبّ حقائق التاريخ على طريقة المتون ، بل كانت أناقته الشعرية تساييره مساييرة واضحة ، وطبيعى أننا لا نطلب منه فى عملٍ مبتدأ كهذا - أو كاد أن يكون مبتدأ - أن يطير مع الخيال فى أجوائه ، فيحمل أفكاره إلى مطارج عالية فى جو من التصوير والإيحاء ، لأن ذلك لا يتيسر فى فنّ ناشئ يحبو فى مدارج الطفولة ، ولكننا نجد عنده بؤادر الجودة حين نراه لا يغفل الوصف الدقيق ، ولا يعدو التصوير الموزق ، فالملمحة أولاً فى بطل واحد ذى معارك مختلفة ، وثانياً تميل إلى ناحية الشاعر أكثر من ناحية المؤرخ ، وهو ما تعذر على ابن المعتز ، مع تفوقه فى دنيا الأدب بعامة ، فابن عبد ربه مثلاً يصف ازدحام الفتن قبل تولية الناصر ، فلا ينص على ذلك فى حكم تقريرى كمتون العلماء ، ولكنه يذكر كيف ضاقت الأرض بساكينها ، وتخبط الناس فى عشواء مدلهمة ، وأخذتهم الصيحة حتى حُرِّموا الرقاد ، وتفزعوا فى أوقات الصلاة وَجِلِينَ أن يدهمهم داهم ، وكل ذلك شعر ينحو منحى العاطفة ، فيثيرها كما يريد ، إذ يقول :

هذا على حين طَغَى النفاقُ	واستفحل النَّكَاتُ والمُرَّاقُ
وضاقت الأرضُ على سُكَّانِها	وأذكت الحربُ لظَى نيرانها
ونحن فى عشواء مدلهمة	وظلمة ما مثلها مِنْ ظُلْمة
تأخذنا الصيحة كُلَّ يومٍ	فما تلدُّ مثلثةً بنومٍ
وقد نصلى العيد بالنواظر	مخافة من العدو الثائر
حتى أتانا الغوث من ضياء	طبق بين الأرض والسما
خليفة الله الذى اصطفاه	على جميع الخلق واجتبا

وهو إذا تعرض لهزيمة الاعداء لم يقتضب اقتضاب ابن المعتز ، ولم يُخلِّ بالوصف إخلال عبد الجبار زميله الملحمى - وسنعرض له - ولكنه شاعر متأن متهمل ، يمر بينانه على أوراق الورد فلا يتعجل ؛ وهو بعد فى معركة حامية تلهب بالنار ، وتعج بالدماء ،

فالعلجان - قائدا الإفرنجية - خائفان مذهوبان ، يفران إلى حديقة يظنانها باب النجاة ،
فتغدو حديقة الموت ، يتحصنان بمقل فيصبح معتقلاً ، يستطعمان الماء فتأخذهما
السيوف ، وتتساقط الصخور ، ويمضى سيف الله ليقيم مأدبة حافلة ضيوفها الغربان
والنسور ، وكم ذبح بها من جزور :

تضافر الكُفر مع الإلحاد	واجتمعوا من سائر البلاد
فاضطربوا فى سفح طودٍ عال	وصعقوا البغيّة القتال
فبادرت إليهم المقدمة	سامية فى خيلها المسومة
ورَدُّهَا مُتَّصِلٌ بِرَدِّ	يردُّه بحرٌ عظيمُ المدِّ
فانهزم العلجان فى علاج	ولبسوا ثوباً من العجاج
كلاهما ينظر حيناً خلفه	فهو يرى فى كل وجه حتفه
والبيضُ فى آثارهم والسُمُرُ	والقتل ماضٍ فيهم والأسر
فلم يكن للناس من براح	وجاءت الرؤوسُ فى الرماح
فصادفوا الجمهور لما هزموا	وعاينوا قوادهم تخرموا
فدخلوا حديقةً للموتِ	إذا طمعوا فى حصنها بالقوتِ
فيالها حديقةٌ ويالها	وافتُ بهم نفوسهم آجالها
تحصنوا إذ عاينوا الأهوالاً	بمعقلٍ كان لهم عقالاً
وصخرة كانت عليهم صليماً	وانقلبوا منها إلى جهنماً
تساقطوا يستطعمون الماء	فأخرجت أرواحهم ظمأ
فكم لسيفِ الله من جَزُورٍ	فلا مأدب الغربانِ والنسور

لا جرم نجد فى هذه الملحمة روح الشعر ، وإذا ألحقها ناقدٌ بالنظم فقد ظلم ، وإنا
لنقرؤها فنرى بها من الوقفات الرائعة ما تجود به قريحة شاعر ملىء ، فهو يتحدث عن
انهزام قائد إفرنجى ، فيصف المعركة فى دقة ، ثم يقف بخياله عند القائم المنهزم وقد قُتل
ونصب مصلوباً فى مدينة مع نفرٍ من معاونيه ، إذ امتطى فى صلبه مطيةً قائمة ، لا تبرح

جامدة لا ترمح^(١) ، يقف مباشراً للشمس والرياح ، يندب نفسه ، ويرثى بلواه ، ويحذر أصحابه من سوء مصيره ، إذ ورد موارد الخزى ، ونصب للناس مثال الفشل والتهور والخذلان ! كل ذلك يسوقه ابن عبد ربه ، فيقول فى إبداع :

هو الذى قام مقام الضيغم	وَجَالَ فى غِرَاثَةِ الصَّيْلَمِ ^(٢)
برأس جالوت النفاق والحسد	مَنْ جَمَعَ الخنزيرَ فيه والأسد
فهاكه من صبحه فى عدة	مصلين عندنا بالسدة
قد امتطى مطية لا تبرح	صائمة قائمة لا ترمح
مطية إن يعرفها انكسار	يطلبها النجار لا البيطار
كأنه من فوقها السوار	عيناه فى كليهما مسمار
مباشر للشمس والرياح	على جواد غير ذى جماح
يقول للخاطر بالطريق	قول محب ناصح شفيق
هذا مقام خادم الشيطان	ومن عصى خليفة الرحمن
فما رأينا واعظاً لا ينطق	أصدق منه فى الذى لا يصدق !

إنَّ وصفاً بديعاً كهذا يظلمه الدكتور هيكل حين يرى أنه أشبه بالمنظومات التاريخية ، وهو إلى تراثه التاريخي أقرب منه إلى تراثه الفنى .. ويسبقه أستاذنا الدكتور أحمد أمين إلى حكم قريب من حكمه العنيف حين يرى^(٣) أن الأرجوزة أشبه ما تكون بالتاريخ المنظوم ، ليس فيها خيار ولا افتخار ، ولا شيء من ذلك !! ثم يقارن ابن عبد ربه بأبى طالب عبد الجبار فيرى^(٤) أن أرجوزة أبى طالب أقرب إلى الملحمة من أرجوزة ابن عبد ربه ! وهذا ما أعجب له كثيراً ..

(١) وهى بعد مطية من خشب ، إذا انكسرت عاجلها النجار لا البيطار ! .. أرايت أبدع من هذا ؟!

(٢) الضيغم : الأسد - وغرثه : جوعه .. والصيْلَم : السيف .

(٣) بالجزء الثالث من ظهر الإسلام - ص ١١٩ .

(٤) المصدر السابق - ص ١٢١ .

لقد عاش أبو طالب عبد الجبار فى عصرى ملوك الطوائف والمرابطين ، واشتهر بالشعر ، حتى عُرفَ - كما يقول ابن بسام - بمتنبى الغرب ، وهو وصف تنازعه معه الرمادى ، وابن هانئ ، وابن دراج ، فكل هؤلاء لدى مواطنيهم يشبهون أبا الطيب .. وقد نظم ملحمة تاريخية متأثراً بسابقه ابن عبد ربه دون نزاع ، حيث إن الأرجوزة مدونة بالعقد ، وهو من الشهرة (بالأندلس والمشرق معاً) بمكانة توجب على أبى طالب وأضرابه أن يَرِدُوا مناهله ، ومع أنها من ناحية الكم تقارب ملحمة ابن عبد ربه فإنَّ هناك فرقاً أصيلاً بين الملحمتين ، فصاحب العقد الفريد قد اختص الناصر بملحمته ، فلم يركض فى غير ميدانه ، وبذلك اتسع المجال أمامه للوصف البارع ، والإجادة اللافتة ، ولكن عبد الجبار بدأ أرجوزته بالتحميد والتسبيح ، وتعرَّض إلى ما سماه مقدمات من أدلة المعرفة ، والاستدلال على الصانع تعالى من الصنعة ، وهو ضرب لا يتصل إلى الشعر بسبب ، بل هو بمنزلة الجوهرة أو بمنزلة الخريدة فى علم التوحيد أشبه ، كأن يقول :

وَقُلْ بِمَا يَقُولُ أَهْلُ الْحَقِّ	مَنْ مُثْنِى صِفَاتِ رَبِّ الْخَلْقِ
وَأَدَوَاتِ الْحَسَنِ يَا مَنْ يَفْحَصُ	عَنْ عِلْمِهَا وَمَنْ عَلَيْهَا يَحْرِصُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ثُمَّ اللَّمْسَ	وَالشَّمَّ وَالذَّوْقَ فَتِلْكَ خَمْسُ

ثم انتقل إلى باب التفكير فى الملكوت ، فتحدث عن الأجرام والأفلاك والعناصر الأربعة حيث أطل ، ثم تطرق إلى باب بدء الخليقة وذُرِّ البرية ، فألَمَ بحديث آدم وحواء ، وقاييل وهابيل ، فإذا قال ما عنده انتهى إلى الأنبياء والمرسلين ، ثم إلى الخلفاء الراشدين ، فخلفاء الدولة الأموية ، فما يليها من رجال الدولة العباسية ، حتى إذا ذكر ما شاء الله أن يذكر من أسماء الخلفاء والوزراء والأصهار والكتّاب تعرض إلى الدولة الأموية بالأندلس ، وتركها إلى الحديث عن الفتنة الأولى بقرطبة ، ثم ملوك الطوائف بعد ذهاب دولة ابن عامر ، وأمراء الجماعة بقرطبة ، ثم دولة المرابطين إلى عهد على بن يوسف بن تاشفين ، فبالله من جهد جاهدٍ ذهب فى غير طائل ، لم تتخلله ومُضْة شاعرية ، أو لمحة أدبية ، بل انصبَّ على القول انصباباً يذكرنا بألفيات ابن مالك ، وجلال الدين السيوطى ، وابن معطى ! .. ومع ذلك يقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين - رحمه

الله - إن أرجوزة أبي طالب أقرب إلى الملحمة من أرجوزة ابن عبد ربه .. ينجيل إلى أن الأستاذ رحمه الله حاول أن يقول العكس فسبق قلمه ، وإلاّ فهو من الفطنة والبصيرة والذوق بحيث لا يصدر عنه هذا الرأي فى بساطة مستغربة ، ومهما يكن من شىء فقد ذكر ابن بسام أرجوزة أبي طالب (بالقسم الثانى من المجلد الأول) كما ذكر ابن عبد ربه ملحمة بالعقد ، فليرجع إليهما من يريد الموازنة عن عيان .

على أن هناك أرجوزة ملحمة أخرى للشاعر الأندلسى يحيى بن الحكم الملقب بالغزال ، وكان شاعراً مطبوعاً يتشبه بأبى نواس فى افتنانه ونزغته إلى التجديد ، ويقوم بالسفارة السياسية بين ملوك العرب والروم ، وقد أشار المقرئ فى النفع إلى هذه الأرجوزة وذكر شيئاً منها ، وإن وجود أربع أراجيز تاريخية بالأندلس لينبئ عن مثيلات لا نعرف عنها شيئاً ، وهو مما يؤيد الأستاذ «ريبيرا» فى شيوع هذا الضرب من الملاحم وانتشاره ، ثم فى تأثيره فيما بعد فى الأدبين الأسبانى والفرنسى معاً .

وكان من المحتمل أن ينتشر هذا اللون فى المشرق والمغرب معاً ، على أن تكون الأندلس رائدته الأولى بدون شك ، ولكن غفوة التجديد فيما بعد زوال الأندلس ، وطغيان المحاكاة فى عصور الممالك وما وليها من عهود الانحطاط . فى الأدب العربى ، قد قضى على هذا الاحتمال ، حتى جاءت النهضة الحديثة وأحس الشعراء فى أوائل القرن العشرين بسيطرة الاستعمار الغربى ، ومحاولته الجاهدة فى إخماد الروح العربية والإسلامية معاً ، وكان حاضر الدول العربية إذ ذاك من الاحتلال والسيطرة الأجنبية مما يدعو الشعراء إلى التغنى بالأعجاز العربية الإسلامية القديمة كى يوقظوا الهمم ، ويبشوا الحمية فى النفوس ، فانطلق شعراء هذه الحقبة يتغنون بأعلام الإسلام وأبطال العرب ، تحدث حافظ إبراهيم عن عُمرَ فى قصيدته الشهيرة .

حسب القوافى وحسبى حين ألقيا أنى إلى ساحة الفاروق أهديها
وتحدث محمد عبد المطلب عن الإمام على بن أبى طالب فى علويته الرائعة :

أرى ابن الأرض أصغرها مقاماً فهل جعل النجوم له مراماً
زهاه رونق الخضراء لما تلفت فى مجرّتها وشاماً

وتحدث عبد الحليم المصرى عن أبى بكر الصديق فى بكريته الذائعة :

أَفْضَى أَبَا بَكْرٍ عَلَيْهِمْ قَوَافِيَا وَأَمْطَرُ لِسَانِي حِكْمَةً وَمَعَانِيَا
وَقُلْ لِرَسُولِ اللَّهِ يَغْفِرُ زَلَّتِي إِذَا لَمْ أَكُنْ فِيهِ بِقَوْلِي بَادِيَا

وكانت هذه القصائد الحماسية وأمثالها تُقال فى حفلات عامة تنهض بها لجان محترمة تضم أفاضل المصريين ، وقد رأس بعضها شيخ شعراء مصر إسماعيل صبرى .. ولعل من البديع أن نذكر أن الشاعر البدوى محمد عبد المطلب أنشد علويته فى حفل دائرى بالجامعة ، وكان يركب جملاً ، ويرتدى عقلاً بدوياً ، وملابس عربية ، ويقود زمام مطيته عريبان صميمان ، أحدهما عبد الستار الباسل عضو الشيوخ ، مما يصور حنين النفوس إلى أمجاد العرب ، وذكريات الإسلام !

أما شوقى ، فقد أدلى بدلوه فى الدلاء ، ونظم أرجوزته المعروفة «دول العرب وملوك الإسلام» سنة ١٩١٩ ، وقد أجرى القول فيها على سنن ابن عبد ربه ، مما يشعر باحتدائه المتابع ! ولا أدرى لماذا اكتفى شوقى فى ملحمة التاريخة بالسرد التاريخى وحده ، وهو قدير على أن يبعث من روحه الشاعرية ما يجعل أرجوزته جديرة باسمه ، لقد كان لشوقى من ثقافته الغربية فى فرنسا ما يدعوه إلى أن يفهم من الملحمة غير ما فهمه ابن عبد ربه ، ولكنه يحتذى الشاعر الأندلسى غير عابئ بما تتمخض عنه الدراسات الأدبية من بحوث ناقدة تحدد صلة الشاعر بالتاريخ ، وترى فى استلهاهم الحوادث شيئاً آخر غير السرد المتتابع ، والحكاية السريعة ، بل إن من الغريب أن تكون أرجوزة ابن عبد ربه أوفى شاعرية من أرجوزة شوقى ، ونحن نذكر منها نموذجاً يعتبر من أحسنها وأوفاهها ، إذ يتحدث شوقى عن وداع عبد الله بن الزبير لأمه قبل مصرعه ! ومع أن الموقف عاطفى مؤثر ، يقتضى من الشاعر أن يبعث حرارة ملتبهة فى قوافيه ، إلا أن شوقى كان قصاراه أن يقول :

وضاق عبد الله عن عبد الملك فجاء أمّه ومَنْ كَأُمِّهِ
ورأيه الوضّاح فى الخطب الحلك لعلها تحمل بعض همّه !
فقال ما ترين ؟ فالأمر لك للموت أمضى أم لعبد الملك

قَالَتْ إِذَا كُنْتُ لِحَقِّ تُرْتَا
 أَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا قِصَارَى هِمَّتْكَ
 الْحَقُّ بِأَحْرَارٍ مَضُوا قَدْ أَحْسَنُوا
 وَلَا تَقُلْ هُنْتُ بَوَهْنٌ مَنْ مَعِيَ
 أَنْتَ إِلَى الْحَقِّ دَعَوْتَ صَحْبَكَ
 وَلَا تَقُلْ إِنْ مَتَّ مَثَلُوا بِي
 هِيَهَاتَ مَا لِلْسُلْخِ بِالشَّاةِ أَلَمْ

فَلَا تَخَالِفْ مَا إِلَيْهِ سِرْتَا
 فَبُئْسَ أَنْتَ ، كَمْ دَمٌ بِذِمَّتِكَ
 فَاَلْمُوتُ مِنْ دُلِّ الْحَيَاةِ أَحْسَنُ
 فَلَيْسَ ذَا فَعَلِ الشَّرِيفُ الْأَلْمَعِي
 فَاقْضِ كَمَا قَضَوْا عَلَيْهِ نَحْبَكَ
 وَطَافَ أَهْلُ الشَّامِ بِالْمُصْلُوبِ
 وَرُبَّ جَذَعٍ فِيهِ لِلْحَقِّ عِلْمُ

أما الشاعر الكبير الذى يمكن أن يذكر فى هذا الموقف بالثناء والحمد ، فهو الأستاذ
 أحمد محرم ، إذ نظم المواقع الإسلامية الأولى على عهد الرسول فى إلياذة ضافية تشمل
 أربعة أجزاء ، وقد كافأه الله على نيته ، فنهضت محافظة البحيرة بطبع إلياذته ، والاحتفال
 بذكره ، وهى إلياذة قوية ، تمخضت بذرة الملاحم الأندلسية عن دوحته المورقة ،
 ولبعض الناقدين ملاحظات على طريقتها ، ولكنها مع ذلك إبداع ملحى فريد فى
 الأدب العربى ، وهو تطور طبيعى لخطوة ابن عبد ربّه وأضرابه ، فهى مما يذكر فى هذا
 الباب مشيراً إلى بعض ألوان التأثير بين السابقين واللاحقين .

